ليف غرينبيرغ *

انشقاق المستوطنين: دراسة في المأزق السياسي الذي يخيّم على إسرائيل

كشف المأزق الذي انتهت إليه السياسة الإسرائيلية عقب انعقاد جولتين متتاليتين من الانتخابات في العام ٢٠١٩ (في شهريْ نيسان وأيلول) النقاب عن جانب خفي من خفايا المجتمع والسياسة في إسرائيل: فالعداوات السائدة بين الطوائف لا تقتصر على العداوة القائمة بين اليهود والعرب، وإنما تستشري أيضًا بين مختلف الطوائف اليهودية التي تتميز بثقافاتها الفرعية. وتشكل هذه المشاعر العدائية نتيجةً مترتبة على استعمار فلسطين على يد اليهود الأوروبيين، وبنية المجتمع التي تقوم على هوية قومية يهودية فوقية وعلمانية-أوروبية.

جولتان من الانتخابات[1]

أثارت جولة الانتخابات الأولى التي انعقدت في شهر نيسان ٢٠١٩ نقاشا حامي الوطيس اتّسم بانقسامه وبطابعه القَبَلي حول فساد بنيامين نتنياهو، والسؤال الذي أثار الجدل وتمحور حول ما إذا كان في وسعه أن يتقلّد منصب رئيس الوزراء خلال فترة محاكمته، في حال صدور حكم يقضي بإدانته.[2] فبعد ثمانٍ وعشرين يومًا، وهي الفترة التي يمنحها القانون للمرشحين لتولّي منصب رئيس الوزراء من أجل تشكيل ائتلاف حكومي، أعلن نتنياهو عجزه وفرض إجراء جولة جديدة من الانتخابات، ما حال بين خصمه، بيني غانتس، وبين توظيف الخيار القانوني الذي يتيح له أن يحاول تشكيل ائتلاف بقيادته. وكان نتنياهو يتوقع أن القوة الكامنة في حزبه وشركائه المحتملين قد ترفع عدد المقاعد التي يحصدها إلى واحد

* محاضر في قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في جامعة بئر السبع، وناشط اجتماعي يساري.

أماطت جولة الانتخابات الثانية اللثام عن مواطن من التوتر الشديد في أوساط المجتمع الإسرائيلي بين مختلف الفئات الاجتماعية التي يُكِنّ بعضها العداء لبعض. وهذه العداوات الداخلية هي ما يقف وراء حالة الجمود التي سادت في أعقاب الجولتين الانتخابيتين، ناهيك عن جوانب التوتر التي يُتوقَّع أن تطفو على السطح بعد تشكيل ائتلاف حكومي جديد.

وستين مقعدًا، وهو الحد الأدنى الضروري لتأمين أغلبية في البرلمان الإسرائيلي. بيْد أن هذه الأحزاب خسرت خمسة مقاعد في الواقع، ما أفرز مأزقًا يتّسم بقدر أكبر من التعقيد.

وشهدت الحملات الانتخابية تغييرًا ملموسًا في الجولة الثانية، وهو ما أثار بدوره نقاشات حادّة في أوساط الكتل التي تؤيد نتنياهو، وتلك التي تناهضه، وفيما بينها. وكانت النتيجة أن حزب نتنياهو وشركاءه (الذين يحملون مسمّى كتلة «اليمين») خسروا خمسة مقاعد. ومع ذلك، لم يَزِد نصيب الكتلة المناهِضة لنتنياهو عن المقاعد التي فازت بها إلا بمقعدين (من خمسة وخمسين مقعدًا إلى سبعة وخمسين مقعدًا).[٣] وظهر في كلتا الجولتين حزب صغير يمثل الناخبين الناطقين بالروسية، ويقوده زعيم مغالٍ في تشدده، وهو أفيغدور ليبرمان، في صورة الحزب الذي مثَّل بيضة القبان في الانتخابات. فعلى غرار جولة المفاوضات السابقة، أعلن ليبرمان مرة أخرى أنه لن يشارك في الائتلاف الذي يشكله نتنياهو، ورفض عقد الشراكة التي أقامها مع الأحزاب الدينية، وطالب بتشكيل حكومة وحدة وطنية، تتألف في أساسها من الحزبين الكبيرين جنبًا إلى جنب مع حزبه، وهو حزب إسرائيل بيتينو («إسرائيل بيتنا»). ويبدو أن لا شيء تغيّر، وأن المأزق نفسه قد أعيدَ إنتاجه.

ومع ذلك، أماطت جولة الانتخابات الثانية اللثام عن مواطن من التوتر الشديد في أوساط المجتمع الإسرائيلي بين مختلف الفئات الاجتماعية التي يُكِنّ بعضها العداء لبعض. وهذه العداوات الداخلية هي ما يقف وراء حالة الجمود التي سادت في أعقاب الجولتين الانتخابيتين، ناهيك عن جوانب التوتر التي يُتوقَّع أن تطفو على السطح بعد تشكيل ائتلاف حكومي جديد.

وخلال الفترة التي سبقت انعقاد الجولة الانتخابية الثانية، شهدت الأحزاب التي شاركت في الانتخابات تغيُّرًا طفيفًا. ففي أعقاب نتائج الجولة الأولى التي نُظِّمت في شهر نيسان ٢٠١٩، سعت الأحزاب الصغيرة التي كانت على شفير الانقراض إلى إنقاذ نفسها من خلال الانضمام إلى أحزاب أكبر منها والانضواء تحت رايتها. وقد حصلت هذه التغيرات في كلا الكتلتين. فحزب موشيه كحلون، وهو حزب كولانو من تيار الوسط (أربعة مقاعد)، غدا جزءًا من الحزب المهيمن، وهو حزب الليكود (خمسة وثلاثون مقعدًا). واندمج حزب «اليمين الجديد»، الذي لم يحالفه الحظ في بلوغ نسبة الحسم، وهي ٣,٢٥ في المائة، لكي يحظى بالتمثيل في الكنيست، مع اتحاد الأحزاب اليمينية (خمسة مقاعد)، وانشقّ عنه مؤخرًا في الفترة التي سبقت انعقاد الانتخابات في شهر نيسان. وقد ساعد هذا الاتحاد أحزاب اليمين المتطرف على الفوز بمقعدين إضافيين (حيث بلغ العدد الكلي لمقاعده سبعة مقاعد)، غير أن قائمة نتنياهو الجديدة خسرت سبعة مقاعد (حيث فازت بما مجموعه اثنين وثلاثين مقعدًا). وكانت الأحزاب الدينية المتزمتة تضع ثقتها في جمهور ناخبيها، وسجّلت النجاح في المحافظة على مقاعدها الستة عشر.[٤]

ومن جانب آخر، شهدت أحزاب المعارضة حالات من الاندماج السريع. فقد عاودت الأحزاب التي تمثل المواطنين الفلسطينيين العرب، وهي التجمع الوطني الديمقراطي والقائمة العربية الموحدة (أربعة مقاعد) وقائمة الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة، وقائمة الحركة العربية للتغيير (ستة مقاعد)، الاتحاد تحت راية القائمة المشتركة، التي سجّلت أداءً أفضل بشوط بعيد من أدائها في انتخابات العام ٢٠١٥ (ثلاثة عشر مقعدًا)، وأصابت النجاح في إعادة إنتاج إنجازها السالف. وتحالف حزب ميرتس «اليساري» مع إيهود باراك (رئيس الوزراء الأسبق) وستاف شافير، وشكّل معهما

الأزمة السياسية في إسرائيل.. أعراض لإنقسامات عميقة.

الاتحاد الديمقراطي، ما أسهم في رفع مستوى تمثيله من أربعة مقاعد إلى خمسة مقاعد.[٥] ونجح حزب العمل في المحافظة على المقاعد الستة من خلال انضمامه إلى حزب أورلي ليفي الجديد، غيشر (الذي ضم منشقّين عن حزب ليبرمان وائتلاف نتنياهو السابق). هذا مع العلم أن ليفي لم تجتَز نسبة الحسم في الانتخابات التي عُقدت في شهر نيسان. وكان حزب كاحول لافان (أزرق أبيض)، الذي غدا البديل الرئيسي لحزب نتنياهو الحاكم، واثقًا في قوته إلى حد لم يُقْدِم معه على الانضمام إلى أحزاب أخرى، ولم يخسر سوى مقعدين في الجولة الثانية (حيث تراجع من خمسة وثلاثين مقعدًا إلى ثلاثة وثلاثين مقعدًا)، وحصلت الكتلة التي يقودها هذا الحزب على سبعة وثلاثين مقعدًا في نهاية المطاف. وقد مثّل حزب كاحول لافان قائمة جديدة تمحورت حول ترشُّح رئيس هيئة الأركان الأسبق بيني غانتس لتقلُّد منصب رئيس الوزراء، إلى جانب عدة أفراد ومجموعات اجتمعت معًا خلال الفترة التي سبقت الانتخابات. ويضم أبرز الشركاء حزب يِش عتيد (وهو حزب «من تيار الوسط»)[٦] وحزب تيليم، وهو عبارة عن حزب شكّله موشيه يعلون، رئيس هيئة الأركان الأسبق ووزير الأمن عن حزب الليكود. وحسبما نبيّن أدناه، كانت وسائل الإعلام والقائمون على إجراء استطلاعات الرأي يطلقون تسمية كتلة «يسار الوسط» على هذه الأحزاب، على الرغم من الواقع الذي يقول إنها لم تعتمد برنامجًا سياسيًا يساريًا. فقد التأم شمل هذه الأحزاب معًا بغية تحقيق هدف واحد، وهو استبدال نتنياهو. وقد عملت هذه التوليفة التي تنطوي على الرفض المطلق «لزعيم» «اليمين» والخلفية الأوروبية العلمانية التي ينحدر منها هؤلاء الزعماء على تحويلهم إلى حزب «يساري» قبَلي بصورة تلقائية، وقد نجحوا بالفعل في استقطاب أصوات الناخبين القبليين الذين يؤيدون تيار «اليسار». وتحول مواطن التوتر الداخلي والتوجهات المختلفة داخل حزب كاحول لافان دون تشكيل ائتلاف حكومي بديل يحلّ محل نتنياهو وشركائه.

ويكمن التوتر الجليّ الذي يسود الكتلة «المناهضة لنتنياهو» في الاختلاف العميق بين المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل، والذين تمثلهم القائمة المشتركة، والمواقف الصهيونية واليهودية الفوقية التي يتبنّاها معظم أعضاء الأحزاب الأخرى في كتلة «يسار الوسط». ومع ذلك، فقد كشفت المساعي التي بذلتها الأحزاب في سبيل ضمان بقائها في الجولة الثانية من الانتخابات النقاب عن توتر آخر كان قائمًا منذ فترة ليست بالقصيرة بين النخب العلمانية الأوروبية التي تضم قدامى المحاربين وأولئك الذين يريدون تمثيل الطوائف التي مسّها الاضطهاد منذ أمد بعيد في إسرائيل، ولا سيما اليهود المزراحيين. واليهود الذين تطلَق عليها تسمية المزراحيين هم أولئك الذين هاجروا إلى إسرائيل من البلدان العربية والإسلامية

يكمن التوتر الجليّ الذي يسود الكتلة «المناهضة لنتنياهو» في الاختلاف العميق بين المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل، والذين تمثلهم القائمة المشتركة، والمواقف الصهيونية واليهودية الفوقية التي يتبنّاها معظم أعضاء الأحزاب الأخرى في كتلة «يسار الوسط».

(وأبناؤهم الذين وُلدوا في إسرائيل)، ووُسموا بعبارة اليهودي «الآخر» وتعرضوا للتمييز على يد النخب الأوروبية المهيمنة التي كانت تمسك بمقاليد السلطة على مدى الأعوام الثلاثين الأولى من عمر إسرائيل. وكان هؤلاء يمثلون نخب الحركة العمالية، التي شيّدت المؤسسات والبنى التي قامت عليها الدولة الاستعمارية الاستيطانية، ودخلت في صراع مع السكان العرب المحليين، وأرست دعائم نظام يهودي يتسم بنزعة فوقية استعلائية، ولا يزال يمارس التمييز بحق اليهود المزراحيين حتى يومنا هذا. وغدا معظم اليهود المزراحيين، في معرض ردود فعلهم على هذا التمييز، يتماهون مع تيار «اليسار»،[٧] الذي طوّر نسخة يهودية شمولية من الهوية القومية، منذ العام ١٩٧٧.[٨]

وقد أثارت المسألة التي تبحث في الجهة التي تملك القدرة على استمالة هذه الفئة بعينها من جمهور الناخبين الذين يؤيدون تيار اليمين على وجه التحديد الجدل بين حزبيْ ميرتس وكاحول لافان من جهة، وحزب العمل-غيشر المشترك الجديد من جهة أخرى. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يجرؤ فيها اثنان من الساسة المزراحيين، وكلاهما ينحدر من أصول مغربية، على تزعُّم حزب سياسي مستقل (باستثناء حزب شاس الديني المتزمت)، بل وتجرآ على رفض الانضمام إلى حزب ميرتس الأشكنازي. وسوف نحاول أن نبيّن في هذا المقام أن هذا التوتر يُعَدّ نتيجة ترتبت على البنية التاريخية التي شكّلت الهوية القومية والحلبة السياسية الإسرائيليتين، بما فيها الشرخ الذي أصاب تياريْ «اليسار واليمين». ولكي نحلل التركيبة المعقدة التي تَسِم المجتمع ونظام الحكم في إسرائيل وغياب البدائل السياسية، فسوف نستعرض تحليلًا تاريخيًا موجزًا للمشهد الاجتماعي والسياسي الإسرائيلي.

أفول نجم النخبة الأشكنازية

بعدما انحرفت اتفاقيات أوسلو عن مسارها في العام ٢٠٠٠، نشر باروخ كيمرلينغ، وهو عالم الاجتماع النقدي والمفكر العام الرصين، مقالة سياسية في صورة كتاب قصير وصف فيه سقوط النخبة العلمانية الأشكنازية التي كانت تحكم إسرائيل منذ الأيام الأولى التي أُقيمت فيها الدولة.[٩] وتكمن الفرضية التي يطرحها كيمرلينغ في وجود نخبة استيطانية صهيونية وطّدت أركان الهوية القومية الإسرائيلية وشكّلت مؤسساتها السياسية.

وأطلق كيمرلينغ على مؤسسي المؤسسات الصهيونية التي كانت موجودة قبل إقامة الدولة، والتي صارت تتبع دولة إسرائيل فيما بعد، تعريف (أحوساليم)، وهو عبارة عن كلمة مركبة من أوائل حروف الكلمات (أشكناز وعلمانيين وقدامى [المحاربين] واشتراكيين وقوميين) بالعبرية، حيث استوحاه من العبارة الإنجليزية المختصرة التي تُطلق على نخب المستوطنين الأمريكيين، وهم جماعة البروتستانت الأنجلو-ساكسونيين البيض (WASP). فعلى نحو يشبه النخب الأوروبية في الولايات المتحدة، اخترعت النخب الصهيونية الأوروبية الهوية الجمعية الإسرائيلية في تصورها: وهي هوية أوروبية علمانية حديثة. وأنشأت هذه النخب حزب ماباي الحاكم، الذي بسط سيطرته على الاقتصاد وهيمن على الثقافة الإسرائيلية. وأُخضعت جميع الفئات الأخرى التي أَلِفت المجتمع الإسرائيلي لسيادة النخب الأشكنازية العلمانية.

وأُقصيَ الفلسطينيون العرب الذين لم يبرحوا موطنهم داخل حدود إسرائيل في العام ١٩٤٨ من الهوية الجمعية الإسرائيلية بوصفهم «أقليات»، حيث كابدوا التمييز بفعل تعريف الدولة باعتبارها دولة يهودية.[١٠] وجرى إدماج اليهود المتدينين المتزمتين الذين ناصبوا العداء للصهيونية، ورفضوا فكرة اختزال الديانة اليهودية في هوية قومية،

أُقصيَ الفلسطينيون العرب الذين لم يبرحوا موطنهم داخل حدود إسرائيل في العام ١٩٤٨ من الهوية الجمعية الإسرائيلية بوصفهم «أقليات»، حيث كابدوا التمييز بفعل تعريف الدولة باعتبارها دولة يهودية. وجرى إدماج اليهود المتدينين المتزمتين الذين ناصبوا العداء للصهيونية، ورفضوا فكرة اختزال الديانة اليهودية في هوية قومية، بصفتهم مواطنين يهودًا.

بصفتهم مواطنين يهودًا، على الرغم من إعفائهم من الخدمة العسكرية، وهو ما شكّل مصدرًا للحسد والغضب الدائمين في أوساط اليهود الذي يؤدون هذه الخدمة. ووُسم اليهود الذين هاجروا من البلدان العربية، ولا سيما بعد العام ١٩٤٨، بوسم المزراحيين، «الآخرين» من غير أبناء النخب الأوروبية، وكان يُتوقع منهم أن ينصهروا في البوتقة التي تؤدي عملها حسب الأسلوب الإسرائيلي.[١١] ومن الأهمية بمكان أن نؤكد أنه كان يُتوقع من اليهود الذين ينحدرون من بلدان عربية أن يتخلوا عن ثقافتهم، التي مثّلت تناقضًا لا يخفى: «اليهود العرب».[١٢]

وقد نشر كيمرلينغ، بالتوازي مع نشر المقالة السياسية التي ألّفها باللغة العبرية، كتابًا أكاديميًا باللغة الإنكليزية، حيث أسهب فيه في بيان النظرية الاجتماعية التي طرحها في مقالته السياسية.[١٣] ووسّع كيمرلينغ إطار النظرية الأصلية التي وضعها بشأن المجتمع الاستيطاني خلال الحقبة التي سبقت العام ١٩٤٨،[١٤] بما شملته من السكان الفلسطينيين الأصلانيين والمهاجرين اليهود، ضمن نظرية استعمارية استيطانية شاملة. فقد وُجِّه المهاجرون اليهود الذين قَدِموا من الأقطار العربية إلى الاستيطان في المناطق الهامشية في الدولة لكي يحلّوا محل الفلسطينيين الذين جرى تهجيرهم من ديارهم وتحويلهم إلى لاجئين خلال حرب العام ١٩٤٨، ولم يقتصر الأمر على إجبارهم على إخفاء ثقافتهم العربية وطمسها.

ووفقًا لما جاء على لسان كيمرلينغ، فقد عجزت الهوية الجمعية الأوروبية العلمانية عن احتواء الجماعات المختلفة التي تؤلف المجتمع الإسرائيلي، وانقسمت هذه الهوية إلى سبعة مجتمعات ثقافية فرعية، هي: الأشكناز العلمانيون، والصهاينة المتدينون، والمتدينون المتزمتون الأشكنازيون، والمزراحيون (وهم اليهود الذي ينحدرون في أصولهم من البلدان العربية والإسلامية)، واليهود الذين هاجروا من الاتحاد السوفييتي السابق، والفلسطينيون العرب، واليهود الإثيوبيون. وحسب ما نستشفّه من التحليل الذي أجريناه، كان الوعاء الذي جمع مواطن التوتر الداخلي الذي ساد بين أوساط اليهود يتمحور على مناصبة العداء للفلسطينيين. وهذا يفسّر السبب الذي أفضى بالهوية الجمعية الإسرائيلية إلى التفكك على الفور بعدما وقعت إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية على اتفاقيات أوسلو في العام ١٩٩٣،[١٥] ولا تزال أوجُه العداوة المستشرية بين صفوف اليهود تشهد زيادة حادة منذ العام ١٩٩٣، وحتى نهاية العقد الأخير من القرن الماضي، حيث يفترض كيمرلينغ أنه يمكن وصف إسرائيل باعتبارها «مجتمعًا متعددًا ثقافيًا دون تعددية ثقافية».[١٦] ولذلك، كانت نهاية الهيمنة الغربية العلمانية على الهوية الإسرائيلية وتفكُّك المجتمع وتشرذُمه إلى ثقافات متعددة يُكِنّ بعضها العداء لبعض يمثل نتيجة للعمليات التاريخية طويلة المدى، ولثلاثة أحداث مختلفة تشكلت في إسرائيل على مدى الأعوام الخمسين المنصرمة. ويقوم البيان التالي في أساسه على ما يطرحه كيمرلينغ، مع أنه أقل تعقيدًا في توجّهه. وهو يستند إلى علم الاجتماع الحافل بالأحداث ويعتمد على مساره، ويولي دورًا بالغ الأهمية لتسلسل الأحداث والإجراءات التي اتخذتها الجهات السياسية الفاعلة وردود الفعل إزاءها.[١٧]

ويتمثل أول هذه الأحداث البارزة في توسيع حدود إسرائيل في العام ١٩٦٧ وظهور تيار صهيوني استيطاني ديني مسيحاني سعى إلى الاستيطان في «أرض إسرائيل» برمتها وحلّ محل الدور التاريخي الذي اضطلعت به الحركة العمالية باعتبار أعضائها روّاد التوسع الاستيطاني. وعلى خلاف الأيديولوجيا الاستيطانية العلمانية التي اعتنقها حزب العمل، أعدّ الصهاينة المتدينون إستراتيجية بديلة ترمي إلى إنشاء مجتمع استيطاني يقوم في أساسه على أيديولوجيا مسيحانية دينية وهوية جمعية بديلة.

لا مكان للفلسطينيين في إسرائيل في حلبة «اليمين- اليسار».

ومن الأهمية بمكان أن نشدّد في هذا المقام على أن هذين التوجهين الأيديولوجيين يتسمان بنزعة يهودية فوقية استعلائية - فمثار الجدل الرئيسي الذي يطرحانه يتمحور حول الحدود الشرعية للدولة.

وحصل التغير الثاني في أعقاب أفول نجم حزب العمل في العام ١٩٧٧، والمسعى الذي خاضته الجهات المزراحية الفاعلة في سبيل بناء قوة سياسية تحظى باستقلالها عن حزب الليكود، الذي اجتذب إليه غالبية أصوات الناخبين المزراحيين. وقد استُهلت هذه المحاولة بتشكيل حزب تامي في انتخابات العام ١٩٨١، وتبلورت في انتخابات العام ١٩٨٤ مع تشكيل حزب شاس الديني المتزمت، الذي بلغ أوج قوته في العام ١٩٩٩ عندما حصد سبعة عشر مقعدًا من مقاعد الكنيست.[١٨] وكان هذا الإنجاز إنجازًا بارزًا لا يخفى بالمقارنة مع تسعة عشر مقعدًا فاز بها حزب الليكود بزعامة نتنياهو في ذلك العام.

ويكمن الحدث الثالث الذي أفرز تغييرًا مهمًا في تركيبة المجتمع الإسرائيلي والمشهد السياسي في إسرائيل في الهجرة الجماعية لليهود من الاتحاد السوفييتي السابق في مطلع العقد الأخير من القرن الماضي. فعلى خلاف المهاجرين الذين حطوا رحالهم في إسرائيل من البلدان العربية، حظي هؤلاء المهاجرون الروس بالقبول في أوساط المجتمع الإسرائيلي، دون بروز أي مطالبة باستيعابهم في البوتقة التي تنصهر فيها مكونات هذا المجتمع، أو إجبارهم على التخلي عن ثقافتهم التي حضرت معهم من مسقط رأسهم. وقد توقعت النخب الأشكنازية المهيمنة، التي اتسمت بطابعها الأوروبي، أن المهاجرين الروس الجدد قد يشكّلون قوة تضمن لها التوازن إزاء الثقل الديمغرافي المتزايد الذي يفرضه المزراحيون. وبالفعل، حافظ المهاجرون الناطقون بالروسية على ثقافتهم ولغتهم وغدوا يشكلون ثقافة فرعية متميزة لم تنصهر في بوتقة المجتمع الإسرائيلي. وفي العام ١٩٩٦، حظي هؤلاء المهاجرون بحزبهم السياسي المستقل الأول وانضموا إلى أول ائتلاف حكومي شكّله نتنياهو.

وكان عدد ليس بالقليل من علماء الاجتماع والمثقفين ينظرون إلى تفكُّك الهوية الجمعية الإسرائيلية وتحلُّلها خلال حقبة التسعينات من القرن الماضي باعتباره «نهاية للأيديولوجيا الصهيونية»، في حين برز تفسير ينظر إلى الصهيونية على أنها تتطابق مع ثقافة النخب الأشكنازية وتتواءم معها.[١٩] وقد أفضت هذه العملية إلى تعزيز ما يُسمى «بالأحزاب القطاعية» التي تمثل ثقافة جماعات متباينة ومصالحها في المجتمع الإسرائيلي، بينما شهدت قوة الحزبين الكبيرين، وهما حزبا العمل والليكود، تراجعًا حادًا خلال عقد التسعينيات.[٢٠]

حسب ما نستشفّه من التحليل الذي أجريناه، كان الوعاء الذي جمع مواطن التوتر الداخلي الذي ساد بين أوساط اليهود يتمحور على مناصبة العداء للفلسطينيين. وهذا يفسّر السبب الذي أفضى بالهوية الجمعية الإسرائيلية إلى التفكك على الفور بعدما وقعت إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية على اتفاقيات أوسلو في العام ١٩٩٣.

ظهور العداوات القبلية بين «اليسار واليمين»

في العام ١٩٨١، هزم رئيس الوزراء مناحيم بيغين (حزب الليكود) خضمه شمعون بيريس (حزب العمل) بفارق مقعد واحد (ثمانية وأربعون مقعدًا مقابل سبعة وأربعين مقعدًا) في دورة انتخابية شهدت، وللمرة الأولى في تاريخ إسرائيل، نشأة ثنائية قبلية «بين اليسار واليمين». ونحن ننظر إلى النزعة القبلية باعتبارها إستراتيجية خطابية يوظفها الزعماء السياسيون الذين يسعون إلى تجنيد المناصرين على أساس شعور الانتماء إلى «أناس مثلنا نحن»، في ذات الوقت الذي يبذرون فيه بذور الكراهية لأفراد القبائل «الأخرى» والخوف منها، ولا سيما الخوف من «زعيم» القبائل المعادية وكراهيتها. وقد يكون توظيف هذا الخطاب في سياقات سياسية بعينها مريحًا للغاية للأحزاب السياسية، بالنظر إلى أن التعبئة القبلية التي ترتكز على الكراهية والخوف تيسّر لها التهرب من النقاشات السياسية الجوهرية، في نفس الوقت الذي تعيد فيه تأطير الانتخابات بوصفها معركة تدور رحاها بيننا وبينهم «نحن مقابل هم». وقد لا يجري توظيف السمة القبلية في مواقف ثنائية مزدوجة فحسب، ولكنها عندما تنشأ بين فئتين اجتماعيتين يتنازعهما الاستقطاب تكون فعالة للغاية في سدّ الحيز السياسي وإغلاقه في وجه الخيارات السياسية البديلة. فأنت إن لم تكن معنا «نحن»، فأنت معهم «هم». وفي مثل هذه الثنائيات، يكتسب إيصاد الحيز السياسي فعالية بوجه خاص، بالنظر إلى انعدام وجود أي مركز سياسي ممكن، لأن النقاشات لا تتمحور حول السياسة بل تنصبّ على الهوية. وقد أثبت هذا الأمر نجاعته في العام ١٩٨١ عندما أُغلق الحيز الذي كان متاحًا أمام الهويات السياسية البديلة: حيث كره «اليساريون» بيغين وكره «اليمينيون» بيريس.

وتتمثل الفئات الاجتماعية التي يمثلها «اليسار» في النخب العلمانية الأوروبية، التي تضم في العادة أبناء الطبقات الوسطى والعليا من حملة الشهادات الأكاديمية. ويستميل «اليمين» المزراحيين وأبناء الطبقات الدنيا والمواطنين من ذوي التوجهات التقليدية والدينية. وتستبعد حلبة «اليسار-اليمين» السياسية القبلية الفلسطينيين العرب وتقصيهم، ليس في الأرض المحتلة فحسب، بل داخل حدود ما قبل العام ١٩٦٧. ويحمل «اليسار» و«اليمين» كلاهما صورًا ذاتية قومية خرافية يتباين بعضها عن بعض، ولا تتماشى مع السياسات الفعلية التي تعتمدها أحزابهما عندما تتبوأ سدة الحكم. «فاليسار» ينظر إلى نفسه كما لو كان صانعًا للسلام، على الرغم من الواقع الذي يقول إن حزب العمل وشركاءه السياسيين كانوا هم من أضفوا طابعًا مؤسسيًا على احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية ومرتفعات الجولان وأطلقوا العنان لمشروع الاستيطان خلال الفترة الممتدة بين العامين ١٩٦٧ و١٩٧٧.[٢١]

وفي الوقت نفسه، ينظر «اليمين» إلى نفسه على أنه حامي أرض إسرائيل برمتها، على الرغم من أن مناحيم بيغين كان أول زعيم يوقّع على معاهدة السلام مع مصر في العام ١٩٧٩،[٢٢] وبناءً على ذلك، قادت حكومة الليكود دفة الانسحاب من شبه جزيرة سيناء وأزالت المستوطنات التي كانت مقامة فيها. وفضلًا عما تقدم، اعترفت اتفاقية «إطار السلام في الشرق الأوسط» بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وتضمنت الموافقة على إقامة إدارة فلسطينية مؤقتة في الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة يبلغ مداها خمسة أعوام.[٢٣] ولم تنفَّذ هذه الاتفاقية في حينه، على الرغم من أنها شكّلت الأساس الذي قامت عليه اتفاقيات أوسلو التي وُقعت بين إسحق رابين وياسر عرفات.[٢٤]

ويتمثل التفسير الذي نراه في أن تشكيل ائتلاف رابين في العام ١٩٩٢ وإبرام اتفاقيات أوسلو بعد ذلك بفترة وجيزة، شكّل نقطة التحول التي وقفت وراء تفكيك ثنائية «اليسار

خطاب الكراهية لليبرمان.. بين شيطنة العرب وشيطنة الحريديم.

واليمين» التقليدية والانقسام الذي كان قائمًا بينهما، ما أسهم في تفكُّك الهوية الجمعية الإسرائيلية خلال العقد الأخير من القرن الماضي. ولكن هذه الهوية - ونحن نختلف في هذه الجزئية مع كيمرلينغ - لم تكن تتمحور حول مخيال أوروبي علماني، مثلما كان يتمركز حول تعميم الخدمة العسكرية والضرورة التي يقتضيها خوض القتال في مواجهة «الأعداء العرب» «الأزليين» الذين يقفون على طرفيْ نقيض من التاريخ والسياسة. وبعد التوقيع على معاهدة السلام مع مصر، بقي الفلسطينيون كما لو كانوا «مادة الغراء» التي جمعت المجتمع الإسرائيلي بمختلف أطيافه وشرائحه معًا. ففي اللحظة التي صافح فيها عرفات رابين في حديقة البيت الأبيض، شرعت الهوية الإسرائيلية في التفكك، إلى جانب الانقسام الذي طال ثنائية «اليسار واليمين» التقليدية. وفضلًا عن ذلك، فقد افترضنا، في البحث الذي أجريناه حول «عملية السلام»، أن التفكك الداخلي الذي شهدته حقبة التسعينات من القرن الماضي يمكنه أن يفسر العمل على إعادة بناء التكافل القومي بين اليهود من خلال جولات عدائية لم تزل تتجدد باستمرار منذ العام ٢٠٠٠.[٢٥]

أحزاب للجميع - باستثناء المزراحيين

لقد أثار إضعاف التعبئة القبلية القائمة على ثنائية «اليسار واليمين» والفتّ في عضدها خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي السؤال حول الجهة التي ستتولى تمثيل الناخبين المزراحيين. فحسبما ذكرنا أعلاه، رفع حزب شاس مستوى قوته من عشرة مقاعد إلى سبعة عشر مقعدًا في الكنيست بعدما استمال الناخبين المزراحيين المتدينين من أبناء الطبقة الدنيا والذين كانوا من مؤيدي حزب الليكود ومناصريه من قبل. ومع ذلك، سطّر حزب شاس النجاح في اختراق المشهد السياسي في ذات الوقت الذي تحاشى فيه أن يصطبغ بهوية مزراحية، وأكد انتماءه إلى الطائفة الدينية المتزمتة. ولكن على مدى الفترة التي سبقت انتخابات العام ١٩٩٩، حاول أربعة من الزعماء المزراحيين البارزين من غير المتدينين أن يشاركوا في إعادة تشكيل المشهد السياسي في المرحلة التي تلت انتهاء النزاع، وذلك من خلال الانضمام إلى تشكيلات سياسية جديدة. وكان اثنان من هؤلاء الزعماء من كبار الوزراء المحسوبين على حزب الليكود، حيث استقالا من حكومة نتنياهو وانسحبا من حزب الليكود، وهما دافيد ليفي (وزير الخارجية) وإسحق مردخاي (وزير الدفاع). كما سطع نجم عمير بيريتس والبروفسور شلومو بن عامي في حزب العمل. ومع ذلك، فلم يُقْدِم هؤلاء الساسة المزراحيون على تشكيل تحالفات مع بعضهم بعضًا، بل آثروا عوضًا عن ذلك الانضمام إلى أحزاب تهيمن عليها النخب الاشكنازية. وقد تبيَّن أن القوة المستقلة التي شكّلها المزراحيون كانت هي الوحيدة من بين طائفة ممتدة من الهويات الجمعية التي نُظر إليها على أنها تفتقر إلى صفة شرعية. وكانت الثقافات الفرعية الأخرى كافة تنعم بأحزابها المستقلة: فكان ثمة أحزاب روسية، ودينية متزمتة، وعربية وأحزاب دينية أخرى. ومع ذلك، كان المزراحيون يتعرضون لانتقادات لاذعة كلما خرج ممثلوهم عن الحدود المرسومة لهم. ونحن نؤكد أن كل زعيم من الزعماء المزراحيين كان على علم بأن اتحاده مع سياسي مزراحي آخر كان يعني له موتًا سياسيًا محتومًا لا مفر منه.

ومع أن التعبئة القبلية كانت تزداد تارة وتخبو تارة أخرى في خضمّ الحملات الانتخابية المختلفة، فقد تواصل رفض قيام قيادة مزراحية سياسية مستقلة. وقد اتضح هذا الرفض على نحو ملفت للنظر في جولتيْ الانتخابات اللتين عُقدتا في العام ٢٠١٩، حيث تجلّى رفض وجود قيادة مزراحية مستقلة دون موارية. ففي الجولة الانتخابية الأولى، خسر حزب العمل ثمانية عشر مقعدًا (من أربعة وعشرين مقعدًا في العام ٢٠١٥ إلى ستة مقاعد) بعد انتخاب زعيم مزراحي جديد، هو أفي غباي. وكانت التعبئة القبلية التي أيّدت حزب كاحول لافان، وهو حزب آنيْ شُكِّل أساسًا في إطار مواجهة «زعيم» التيار «اليميني» أكثر استمالة واستقطابًا لهم. ومع ذلك، كشف الجدل الذي ثار في

أثناء الجولة الثانية، بعد التحالف الذي نشأ بين الزعيمين المزراحيين عمير بيريتس وأورلي ليفي، والقرار الذي اتخذاه بالإحجام عن الانضمام إلى حزب ميرتس، النقاب عن مواطن التوتر القبلية التي بقيت دفينة في الجولة الأولى بدرجة أو بأخرى.

وقد حظي حزب ميرتس «اليساري» بالإشادة على الملأ بسبب انضمامه إلى رئيس الوزراء الأسبق، إيهود باراك - على الرغم من الدور الهدّام الذي أداه في حرف عملية أوسلو عن مسارها في الفترة الواقعة بين العامين ١٩٩٩ و٢٠٠١، وتفكّك حزب العمل خلال فترة شراكته مع حكومة نتنياهو بين الأعوام ٢٠٠٩ و٢٠١٣,[٢٦] وفي هذه الأثناء، تعرض الاتحاد الذي قام بين الزعيمين السياسيين المزراحيين، عمير بيريتس وأورلي ليفي، لإدانة صريحة من جانب «اليسار» بجميع أطيافه، وبات هذا الاتحاد يشكّل مثار جدل بارز ومحتدم. فقد شكّلت ليفي حزب غيشر بعدما انشقت عن حزب إسرائيل بيتنا الذي يتزعمه أفيغدور ليبرمان في العام ٢٠١٦، عندما انضمّ إلى حكومة نتنياهو وكرّس عمله البرلماني على قضايا خاصة، بغية استمالة الناخبين الهامشيين المؤيدين لحزب الليكود.

وكان عمير بيريتس على رأس حزب العمل منذ العام ٢٠٠٦، عندما حصل على تسعة عشر مقعدًا وشكّل القوة الثانية في الكنيست والشريك الرئيسي في حكومة كاديما التي ترأسها رئيس الوزراء إيهود أولمرت، حيث شغل بيريتس منصب وزير الدفاع في هذه الحكومة. وفي أعقاب حرب لبنان الثانية الكارثية، أُرغم بيريتس على الاستقالة من منصبه، وأعيدَ انتخابه في الجولة الثانية من انتخابات العام ٢٠١٩. وقد اقترح بيريتس، الذي افترض أن معظم الناخبين من أصحاب النزعة القبلية والمؤيدين «لليسار» كانوا قد أحجموا في الأصل عن التصويت لحزب كاحول لافان في الجولة الأولى، أنه سيحاول أن يحشد الناخبين المزراحيين الذين يعيشون على الهامش ويؤيدون «اليمين»، وذلك في محاولة منه لخلخلة النتائج التي حققتها الكتل في الجولة الأولى. لذا اتّحد بيرتس مع حزب ليفي، غيشر، ورفض الانضمام إلى صفوف حزب ميرتس (وهو حزب يحظى فيه المزراحيون العلمانيون بمكانة مرموقة). ومع ذلك، أفرز هذا القرار تبعات جمّة على قبيلة «اليسار».

فقد اتُّهم بيريتس، منذ اللحظة التي سعى فيها إلى الانفكاك عن ثنائية «اليسار واليمين» القبلية التقليدية، بأنه يحيك مؤامرة في الخفاء من أجل الانضمام إلى الائتلاف الذي يقوده نتنياهو في اليوم الذي يتلو انعقاد الانتخابات.

بيريتس على رأس «العمل».. إذعان لليسار الاشكنازي، إذ لا مكان «شرعيا" لهوية يهودية شرقية في إسرائيل.

وكانت النية التي يبيّتها بيريتس تكمن في استمالة الناخبين الذين يصوتون لتيار «اليسار» ويحملون أجندة سياسية واجتماعية واقتصادية، مثلما فعل ذلك من قبل في العام ٢٠٠٦، عندما نأى بحزبه عن الصور النخبوية التي وسمت قبيلة «اليسار». وسرعان ما تعرض بيريتز، في سياق الرد عليه، للشبهات التي صورته على أنه «خائن» سوف ينضم إلى زعيم قبيلة «اليسار». ووقف بيريتس موقف الدفاع عن نفسه طيلة الفترة التي سبقت حلول يوم الانتخابات، وأقدم في خطوة رمزية على حلق شاربه الذي طالما مثل علامة مميّزة له لكي يعلن مقولته: «اقرأوا شفتي، لن أنضم إلى نتنياهو». ولم يفلح بيريتس في إقناع المتشككين بفعله ذاك فحسب، بل إنه خسر مصداقيته في أوساط الناخبين المحتملين المتأرجحين من تيار «اليمين»، لأنه أذعن للضغط الذي مارسه «اليسار» الأشكنازي عليه.

ويشكّل بروز القيادة الأشكنازية تهديدًا لثنائية «اليسار واليمين»، وهو ما يُعَدّ مريحًا للغاية من أجل مواصلة العمل على استمالة الناخبين والتهرب من ضرورة تقديم برامج سياسية متفق عليها في الوقت نفسه. فالهوية المزراحية يُنظر إليها على أنها تمثل تهديدًا لكلا «اليسار» و«اليمين» لسبب محدد يكمن في أنها تقدّم بديلًا لهويتيْ الأمة كليهما. ففي وسع هذه الهوية أن تقترح هوية جمعية أكثر شمولية من الهوية الإسرائيلية الأوروبية العلمانية التي تسم «اليسار» والهوية القومية الدينية التي يعتمدها «اليمين». وتملك هوية إسرائيلية جديدة محتملة

تتمثل الفئات الاجتماعية التي يمثلها «اليسار» في النخب العلمانية الأوروبية، التي تضم في العادة أبناء الطبقات الوسطى والعليا من حملة الشهادات الأكاديمية. ويستميل «اليمين» المزراحيين وأبناء الطبقات الدنيا والمواطنين من ذوي التوجهات التقليدية والدينية. وتستبعد حلبة «اليسار-اليمين» السياسية القبلية الفلسطينيين العرب وتقصيهم، ليس في الأرض المحتلة فحسب، بل داخل حدود ما قبل العام ١٩٦٧.

وترتكز في أساسها على الثقافة المزراحية القدرة على الجمع بين ما يُنظر إليه على أنه تناقضات ثنائية في المصطلحات الدارجة: اليهود-العرب، والدين-العلمانية، والحداثة-التقليد.[٢٧] وبذلك، تتحول الثقافة المزراحية إلى هوية شمولية بديلة تضم جميع الثقافات الفرعية الإسرائيلية. وهذا هو السبب الرئيسي، الذي نفترض أنه يقف وراء تعرض الزعماء المزراحيين المستقلين لهجوم لم يسبق له مثيل من جانب النخب الأشكنازية، التي تضرب بعرض الحائط إمكانية بناء هويات سياسية على نحو مغاير ضمن خطاب شمولي يضم الفئات الاجتماعية كافة.

ويمثل الخطاب القبلي وغياب الهوية الجمعية الشمولية السبب الرئيسي الذي يقف وراء حالة الجمود التي فرضت نفسها عقب الجولتين الانتخابيتين. فبينما دعا بريتس وحزبه إلى تشكيل ائتلاف موسع لا يقاطعه أحد - لا من جانب الأحزاب الدينية المتزمتة ولا من جانب القائمة الموحدة التي تضم الأحزاب العربية - رفضت قطاعات لا يستهان بها من «يسار الوسط» اقتراحه.[٢٨] ورفض البعض تشكيل حكومة مشتركة مع الأحزاب العربية، بينما رفض آخرون التعاون مع الأحزاب الدينية المتزمتة. وأبدى ما يسمى بأحزاب «الوسط» قدرًا أكبر من التشبث بموقفها الذي رفض هذين الشريكين معًا.

المأزق: بروز «الوسط» القبلي

على الرغم من أن حزب كاحول لافان أصاب نجاحًا غير مسبوق بالنسبة لقائمة يقف على رأسها زعيم لم يكن معروفًا بالمرة تقريبًا على الساحة السياسية،[٢٩] فقد عجز هذا الحزب عن جمع واحد وستين مقعدًا دون حزب إسرائيل بيتنا، وهو أمر يشبه ما حصل مع كتلة نتنياهو. وكان هذا هو المِفْصل الذي كان في وسع أفيغدور ليبرمان أن يظهر فيه في مظهر المخلِّص «البطل» الذي يخلّص النخب الأشكنازية العلمانية التي تضم قدامى المحاربين. فقد غدا ليبرمان، بعدما أدار ظهره لعرض نتنياهو بالانضمام إلى الائتلاف الحاكم عقب انتخابات شهر نيسان، اللاعب الرئيسي الذي يملك القدرة على تحديد الجهة التي ستشكل الائتلاف المقبل. كما إنه بقي على هذا الموقف نفسه بعد الجولة الثانية.

لقد كان الصوت الروسي حاسمًا في الانتخابات خلال حقبة التسعينيات من القرن الماضي، حيث تحالف مرة مع نتنياهو ومرتين مع حزب العمل.[٣٠] ومع ذلك، ففي أعقاب الانتفاضة الثانية التي اندلعت في العام ٢٠٠٠، تحول الناخبون الروس إلى مواقف أكثر تشددًا واصطفوا إلى جانب جزب الليكود. وقد استهل ليبرمان مسيرته السياسية المستقلة في العام ٢٠٠٦، حيث حول كراهيته للعرب إلى الإستراتيجية الرئيسية التي وظّفها في سبيل حشد الناخبين لصالحه في العام ٢٠٠٩. وكانت هذه الكراهية والتحريض هما ما أكسباه أربعة عشر مقعدًا في الكنيست، ما جعله شريكًا محوريًا في ائتلاف نتنياهو.

ومع ذلك، فقد تعلّم نتنياهو منذ ذلك الحين أن يوظف الخطاب العنصري المناهض للعرب بقدر فاق ليبرمان بشوط بعيد، ما اضطر هذا الأخير إلى البحث عن صنف آخر من أصناف الكراهية التي تيسر له حشد أصوات ناخبيه. ففي أعقاب جولة الانتخابات الأولى في العام ٢٠١٩، وجد ليبرمان ضالته في شيطنة اليهود المتدينين المتزمتين - الذين يشكلون معلمًا بارزًا من معالم «اليسار» القبلي - وهو ما من شأنه أن يؤمّن له عددًا أكبر من مقاعد الكنيست من المقاعد الخمسة التي فاز بها في شهر نيسان. وبالفعل، فاز ليبرمان بثمانية مقاعد عن طريق مطالبته بتشكيل حكومة وحدة وطنية علمانية مع حزبيْ الليكود وكاحول لافان.

ولا تعبّر النزعة القبلية، حسب الافتراض الذي سقناه

آنفًا، عن موقف سياسي - فهي شكل من أشكال التعبئة السياسية التي تقوم على العداوة في أساسها. وهنا يكمن المصدر القبلي الذي أفضى إلى المأزق السياسي الذي شهده العام ٢٠١٩: فقبيلة «اليسار» تكره اليهود المتدينين المتزمتين والمستوطنين المسيحانيين أساسًا، بينما تكنّ قبيلة «اليمين» الكراهية للعرب و«المتعاونين اليساريين» معهم بصفة رئيسية. وقد عمدت مجموعة من السياسيين إلى تطوير خطاب ينطوي على جرعة مضاعفة من الكراهية لكلتا القبيلتين، «اليسار و«اليمين»، لكي يتسنى لها إيجاد موطئ قدم لتيار «الوسط» على الرغم من تلك الثنائية القبلية، حيث رفضت اليهود المتدينين والمواطنين العرب بصفتهم شركاء محتملين في الحكومة. وقد برزت هذه الإستراتيجية القبلية الجديدة التي خرج بها تيار «الوسط» ومثلت القوة السياسية الثانية في انتخابات العام ٢٠١٣ (حزب يش عتيد)، الذي انضم إلى ائتلاف نتنياهو في الفترة الواقعة بين العامين ٢٠١٣ و٢٠١٥، وطالب بإقصاء الأحزاب الدينية المتزمتة.[٣١] وانضوى حزب يش عتيد تحت راية مجموعة الجنرالات والأعضاء السابقين في حزب الليكود، الذين شكّلوا قائمة كاحول لافان على مدى الفترة التي سبقت انتخابات العام ٢٠١٩، من أجل طرح بديل لنتنياهو. وأبدى حزب يش عتيد، بعد انعقاد الجولة الأولى من الانتخابات، تأييدًا قويًا للمطالبة التي ساقها ليبرمان بشأن إقصاء الأحزاب الدينية المتزمتة من الائتلافات التي تشكّل في المستقبل، وأمسى هذا الأمر بؤرة مركزية من بؤر التوتر داخل حزب كاحول لافان. فعدد من أقطاب هذا الحزب يرفضون ضم الأحزاب الدينية المتزمتة، وآخرون يرفضون ضم القائمة العربية المشتركة.

وفي ظل هذا الوضع، وبالنظر إلى رفض الائتلاف الجامع الذي اقترحه بيريتس، يبقى الخيار الوحيد ماثلًا في مطالبة ليبرمان وحزب يش عتيد في تشكيل ائتلاف مشترك مع حزبي كاحول لافان والليكود. وتبقى العقبة الوحيدة التي تقف في هذا الطريق متمثلة في نتنياهو، الذي وُجهت لائحة الاتهام إليه في الأصل. فالسبيل الوحيد الذي ييسر لنتنياهو البقاء في المشهد السياسي هو أن يؤمّن ترشيحه بصفته رئيسًا للوزراء. وهذا هو الخيار القانوني الوحيد الذي يكفل له المحافظة على حصانته، وهو يحاول أن يفعل أي شيء تقع يده عليه للضغط على الشركاء المحتملين لكي يسلموا بقيادته، بما يشمله ذلك من فرض جولة ثالثة من الانتخابات.

وللحيلولة دون إجراء جولة انتخابية ثالثة، تتمثل النتيجة المرجّحة في تشكيل ما يسمى بحكومة وحدة وطنية. ولكن هذه الحكومة سوف تميط اللثام عن الحقيقة الدفينة التي تخفيها السياسة الإسرائيلية، وهي أنه ليس ثمة اختلاف سياسي بين ما يسمى «يسار الوسط» و«اليسار» فيما عدا صورهم القبلية الخرافية. ويُتوقع أن يواصل هذا الائتلاف، في حال تشكيله، ممارسة القمع العسكري بحق الفلسطينيين والاستمرار في تنفيذ سياسات التقشف الاقتصادي النيوليبرالية. ويتمثل السيناريو الأسوأ في تشكيل ائتلاف من اليمين المتطرف، في حال قرر ليبرمان الانضمام إليه، قبل تنظيم جولة ثالثة من الانتخابات أو بعدها.

النتيجة

لا يُعَد المأزق الذي شهده العام ٢٠١٩ خبرًا سيئًا بالضرورة، لأنه دفع التعبئة القبلية التي لا تستند إلى أصول سياسية إلى أقصى أشكالها المتطرفة. فمواطن التوتر الداخلي في أوساط الحكومة المقبلة متوقعة، وكذلك خيبة الأمل التي اعترت المجتمع المدني من الأحزاب السياسية. وقد تفضي هذه التوليفة من الشعور بخيبة الأمل في الحكومة والانقسامات الداخلية التي تشهدها صفوف النخب إلى تنظيم المجتمع المدني واندلاع الاحتجاجات في نهاية المطاف.٣٢ وبعبارة أخرى، قد تؤدي حكومة وحدة وطنية يفرضها «اليسار» القبلي إلى تسييس الفلسطينيين وعدد من اليهود الإسرائيليين وتعبئتهم معًا. وتمثل التعبئة القبلية النتيجة التي تتمخض عن مجتمع يعصف به انقسام عميق يسود بين عدة طوائف ثقافية لا تملك القدرة على مواجهة الآثار الهدامة التي يفرزها مشروع الاستعمار الاستيطاني، ونظام يهودي ذي نزعة فوقية استعلائية. وفضلًا عن ذلك، يشكل هذا الوضع نتاجًا لإحجام النخب الأوروبية عن الاعتراف بالطوائف العربية والمزراحية والدينية، وللمحاولة التي تبذلها في سبيل المحافظة على قوتها المهيمنة. ومع ذلك، تفضي حالات الجمود في بعض الأحيان إلى فرص وأفكار وجهات فاعلة وائتلافات جديدة. ولسوء الحظ، تتأتى أنجع الطرق المتبعة في إغلاق الأحياز السياسية من خلال العنف - الذي يُعدّ ثابتًا من الثوابت التي تبعث على الأسى في الديناميكية السياسية الإسرائيلية، ومخزونًا يثير الاشمئزاز ويعرفه القاصي والداني عن إسرائيل.

ترجمه عن الانكليزية: **ياسين السيد**

الهوامش

١ حتى وقت تأليف هذه المقالة، ليس من الواضح ما إذا كانت جولة ثالثة من الانتخابات ستجري أم لا. فنتنياهو يدفع في اتجاه جولة ثالثة، لكي يؤمّن الحصول على شرعية شعبية بعد توجيه لائحة الاتهام إليه، بصرف النظر عن الواقع الذي يقول إن جولة ثالثة ليست محبّذة إلى حد بعيد وقد تفضي إلى نسبة ضئيلة للغاية من إقبال الناخبين عليها.

٢ نعني بتوصيف «قَبَلي» نوعًا من أنواع التعبئة التي تقوم في أساسها على حدود الهوية الثقافية والطائفية، ولا ترتكز على النقاشات والمواقف السياسية.

٣ نعمد، وبصورة منهجية، إلى وضع مصطلحيْ «اليسار» و«اليمين» بين علامتيْ تنصيص على أساس وجهة نظرنا التي ننتقد فيها هذه المسميات في السياق الإسرائيلي. وحسبما نسعى إلى بيانه في هذا المقام، يرمز هذان المصطلحان إلى قبيلتين تكنّان العداء لبعضهما، ولا يرمزان إلى مواقف سياسية متباينة. وللاطّلاع على نقاش مستفيض يتناول النزعة القبلية، انظر:
Lev Grinberg, Mo(ve)ments of Resistance: Politics, Economics and Society in Israel/Palestine 19312013– (Boston: Academic Studies Press, 2014), 301–303.

٤ وقد طرأ تغيير بسيط على تقاسُم النفوذ. فبينما فاز كلا الحزبان بثمانية مقاعد في شهر نيسان/، فاز حزب شاس، الذي يمثل اليهود السفارديين، بتسعة مقاعد وحزب يهدوت هتوراه بسبعة مقاعد.

٥ تركت ستاف شافير حزب العمل بعدما خسر الانتخابات التمهيدية أمام عمير بيريتس.

٦ للاطّلاع على بيان ينطوي على قدر أكبر من الإسهاب، انظر الفصل الأخير في هذه المقالة.

7 Asher Arian & Michal Shamir, eds., The Elections in Israel 1992, (Albany, NY: SUNY Press, 1995).
وانظر، أيضًا، أفراهام ديسكين، الانتخابات والناخبون في إسرائيل، (تل أبيب: دار عام-عوفيد للنشر، ١٩٨٨) (بالعبرية).

8 Yonatan Shapiro, The Road to Power: Herut Party in Israel (Albany, NY: SUNY Press, 1991)).

٩ باروخ كيمرلينغ، نهاية الهيمنة الأشكنازية (القدس: دار كيتر للنشر، ٢٠٠١) (بالعبرية).

١٠ انظر:
Elia T. Zureik, The Palestinian in Israel: A Study in Internal Colonialism (London: Routledge, 1979); Ian Lustick, Arabs in the Jewish State: Israel's Control of a National Minority (Austin: University of Texas Press, 1980).

١١ للاطلاع على تحليل يتناول تركيبة المجتمع الإسرائيلي ومختلف مستويات الإدماج فيه على وجه التفصيل، انظر:
Gershon Shafir and Yoav Peled, Being Israeli: The Dynamics of Multiple Citizenship (New York: Cambridge University Press, 2002).

١٢ وقد وجّه الباحثون المزراحيون انتقادات لاذعة لهذا الموقف الذي ينطوي على اضطهاد ثقافي. انظر:
Ella Shohat, "Sephardim in Israel: Zionism from the Standpoint of its Jewish Victims," Social Text 19–20 (1988): 1–35; Sami Shalom Chetrit, Intra-Jewish Conflict in Israel: White Jews, Black Jews (London: Routledge, 2010); Yehouda Shenhav, The Arab Jews: A Postcolonial Reading of Nationalism, Religion, and Ethnicity (Stanford: Stanford University Press, 2006).

13 Baruch Kimmerling, The Invention and Decline of Israeliness (Berkeley: University of California Press, 2001).

14 Baruch Kimmerling, Zionism and Territory: The Socioterritorial Dimension of Zionist Politics (Berkeley: Institute of International Studies, University of California, 1983).

١٥ انظر:
Lev Grinberg, Politics and Violence in Israel/Palestine: Democracy vs. Military Rule (London: Routledge, 2010).

١٦ باروخ كيمرلينغ، «الإسرائيليون الجدد: ثقافات متعددة دون تعددية ثقافية،» مجلة ألبايم (١٩٩٨): ٢٦٤-٣٠٨(بالعبرية).

١٧ لإلقاء نظرة تاريخية عامة على الأحداث التي شكّلت المجتمع ونظام الحكم في إسرائيل بحكم علاقات القوة القائمة بين النخب السياسية والمقاومة التي خاضتها مختلف الفئات الطبقية والإثنية والقومية المغلوبة على أمرها، انظر:
Grinberg, Mo(ve)ments of Resistance.

١٨ انظر:
Chetrit, Intra-Jewish Conflict in Israel (2010); Yoav Peled, ed., Shas: Challenging Israeliness (Tel Aviv: Yediot Haharonot, 2001).

١٩ انظر الدراسة النقدية التي تناولنا فيها هذا التفسير الذي رأى فيه مختلف علماء الاجتماع أن الصهيونية «تتوق» إلى الأيام الخوالي التي ساد فيها الحكم العلماني الاشكنازي.
Lev Grinberg, "Crumbling or Yearning Israeliness?" Theory and Criticism 25 (2004): 249–56.

٢٠ بلغ الحزبان أوج قوتهما عندما حصدا ٩٥ مقعدًا (من أصل ١٢٠ مقعدًا) في العام ١٩٨١ (٤٨ مقعدًا لحزب الليكود و٤٧ مقعدًا لحزب العمل). وتراجع عدد المقاعد التي فاز الحزبان بها إلى ٧٦ مقعدًا (٤٤ مقابل ٣٢) في العام ١٩٩٢، ثم حصلا معًا على ٤٥ مقعدًا (١٦ مقابل ٢٥) في العام ١٩٩٩. وكانت جميع الأحزاب الأخرى تمثل طوائف لها ثقافاتها الفرعية، وكانت تحمل اسم «القطاعات في العادة». وللاطّلاع على نقاش يتناول هذا التراجع، انظر:
Grinberg, Politics and Violence in Israel/Palestine (2010), Chapter 7.

21 Gershom Gorenberg, The Accidental Empire: Israel and the Birth of the Settlements, 1967–1977 (New York: Times Books, 2006).

٢٢ وزارة الخارجية الإسرائيلية، معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، على الموقع الإلكتروني:
https://mfa.gov.il/MFAAR/IsraelAndTheMiddleEast/Egypt/Pages/israel%20egypt%20peace%20treaty.aspx

٢٣ «اتفاق كامب ديفيد ١٩٧٨: إطار للسلام في الشرق الأوسط اتفق عليه في كامب ديفيد»، رحلات فلسطينية، على الموقع الإلكتروني:
https://bit.ly/2IT2Kfl.

24 Yaacov Bar-Siman-Tov, Israel and the Peace Process, 1977–1982: In Search of Legitimacy for Peace (Albany, NY: SUNY Press, 1994).

٢٥ انظر:

Grinberg, Politics and Violence (2010).

٢٦ للاطلاع على بيان مفصل يتناول إدارة باراك، انظر:

Raviv Drucker, Harakiri: Ehud Barak and The Failure (Tel Aviv: Yediot Aharonot, 2002).

٢٧ Grinberg, Mo(ve)ments of Resistance, 312.

٢٨ أعلن بيريتس، في الخطاب الذي ألقاه بعد إعلان نتائج الانتخابات على الفور: «أريد أن أرفع صوتي عاليًا وأكون واضحًا: ينبغي ألا نقاطع القائمة المشتركة ... فالمجتمع الإسرائيلي يجب أن يتعافى من عشرة أعوام من حكم نتنياهو. وليس ثمة شفاء دون حب، وليس ثمة شفاء مع المقاطعة والاستقطاب ... وعلينا ألا نقاطع المتدينين المتزمتين كذلك،» (ترجمة المؤلف عن العبرية)، انظر الموقع الإلكتروني:
https://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-5591813,00.html?fbclid=IwAR0U65CK--b2V4mRGalUGDuez7c-QVqnUqV5RHzMeXXueDj9vwPTifLdgsqo.

٢٩ ثمة سوابق عدة شهدت مساعٍ لبناء تشكيلات مشابهة وتمحوُرها حول جنرالات من «يسار الوسط». ففي العام ١٩٧٧، فاز حزب داش بخمسة عشر مقعدًا. ونال هذا الحزب من تيار «الوسط» ستة مقاعد في العام ١٩٩٩. وفي العام ٢٠٠٦، شكّل شارون وبيريس حزب كاديما، وفازا بتسعة وعشرين مقعدًا، على الرغم من أنهما كانا زعيمين سياسيين معروفين، وتبع أثرهما عدد لا يستعان به من أعضاء حزبي الليكود والعمل.

٣٠ في العام ١٩٩٢، لم يشكّل الروس حزبًا خاصًا بهم. فقد كانت هجرتهم قد استُهلت في العام ١٩٨٩. وظهر تأثيرهم في العام ١٩٩٢ مع تصويتهم لرابين. وبحلول العام ١٩٩٦، كان هؤلاء الروس قد أنشأوا حزبًا تزعمه ناثان شيرانسكي، حيث فاز بستة مقاعد وانضم إلى الائتلاف الذي شكّله نتنياهو. وانضوى الروس ضمن ائتلاف بارك في العام ١٩٩٩.

٣١ وقد حذا يائير لبيد، الزعيم الكاريزمي لهذا الحزب، حذو والده، تومي لبيد. فقد شكّل لبيد الأب حزب شينوي الذي تزعمه قبل انعقاد الانتخابات في العام ١٩٩٦، وفاز بستة مقاعد. وفي انتخابات العام ٢٠٠٣، حصل حزب شينوي على خمسة عشر مقعدًا وانضم إلى حكومة شارون، التي أقصت الأحزاب الدينية المتزمتة. وغاب حزب شينوي عن الساحة في انتخابات العام ٢٠٠٦ مع ظهور حزب كاديما، الذي أنشأه شارون. وتراجعت قوة حزب كاديما في العام ٢٠١٣ إلى ستة مقاعد، وانضم إلى صفوف حزب العمل في انتخابات العام ٢٠١٥. وقد صوّت معظم الناخبين الذين أدلوا بأصواتهم لقائمة حزبيْ كاديما والعمل في العام ٢٠١٥ (أربعة وعشرون مقعدًا) لصالح حزب كاحول لافان في العام ٢٠١٩.

٣٢ للاطلاع على تفسير وافٍ لهذه الفرضية، انظر:

Grinberg, Mo(ve)ments of Resistance, 45–50.

٣٣ حتى وقت تأليف هذه المقالة، ليس من الواضح ما إذا كانت جولة ثالثة من الانتخابات ستجري أم لا. فنتنياهو يدفع في اتجاه جولة ثالثة، لكي يؤمّن الحصول على شرعية شعبية بعد توجيه لائحة الاتهام إليه، بصرف النظر عن الواقع الذي يقول إن جولة ثالثة ليست محبّذة إلى حد بعيد وقد تفضي إلى نسبة ضئيلة للغاية من إقبال الناخبين عليها.

٣٤ نعني بتوصيف «قَبَلي» نوعًا من أنواع التعبئة التي تقوم في أساسها على حدود الهوية الثقافية والطائفية، ولا ترتكز على النقاشات والمواقف السياسية.

٣٥ نعمد، وبصورة منهجية، إلى وضع مصطلحيْ «اليسار» و«اليمين» بين علامتيْ تنصيص على أساس وجهة نظرنا التي ننتقد فيها هذه المسميات في السياق الإسرائيلي. وحسبما نسعى إلى بيانه في هذا المقام، يرمز هذان المصطلحان إلى قبيلتين تكنّان العداء لبعضهما، ولا يرمزان إلى مواقف سياسية متباينة. وللاطّلاع على نقاش مستفيض يتناول النزعة القبلية، انظر:
Lev Grinberg, Mo(ve)ments of Resistance: Politics, Economics and Society in Israel/Palestine 19312013– (Boston: Academic Studies Press, 2014), 301–303.

٣٦ وقد طرأ تغيير بسيط على تقاسُم النفوذ. فبينما فاز كلا الحزبان بثمانية مقاعد في شهر نيسان/، فاز حزب شاس، الذي يمثل اليهود السفارديين، بتسعة مقاعد وحزب يهدوت هتوراه بسبعة مقاعد.

٣٧ تركت ستاف شافير حزب العمل بعدما خسر الانتخابات التمهيدية أمام عمير بيريتس.

٣٨ للاطّلاع على بيان ينطوي على قدر أكبر من الإسهاب، انظر الفصل الأخير في هذه المقالة.

39 Asher Arian & Michal Shamir, eds., The Elections in Israel 1992, (Albany, NY: SUNY Press, 1995).
وانظر، أيضًا، أفراهام ديسكين، الانتخابات والناخبون في إسرائيل، (تل أبيب: دار عام-عوفيد للنشر، ١٩٨٨) (بالعبرية).

40 Yonatan Shapiro, The Road to Power: Herut Party in Israel (Albany, NY: SUNY Press, 1991).

٤١ باروخ كيمرلينغ، نهاية الهيمنة الأشكنازية (القدس: دار كيتر للنشر، ٢٠٠١) (بالعبرية).

٤٢ انظر:

Elia T. Zureik, The Palestinian in Israel: A Study in Internal Colonialism (London: Routledge, 1979); Ian Lustick, Arabs in the Jewish State: Israel's Control of a National Minority (Austin: University of Texas Press, 1980).

٤٣ للاطلاع على تحليل يتناول تركيبة المجتمع الإسرائيلي ومختلف مستويات الإدماج فيه على وجه التفصيل، انظر:

Gershon Shafir and Yoav Peled, Being Israeli: The Dynamics of Multiple Citizenship (New York: Cambridge University Press, 2002).

٤٤ وقد وجّه الباحثون المزراحيون انتقادات لاذعة لهذا الموقف الذي ينطوي على اضطهاد ثقافي. انظر:

Ella Shohat, "Sephardim in Israel: Zionism from the Standpoint of its Jewish Victims," Social Text 19–20 (1988): 1–35; Sami Shalom Chetrit, Intra-Jewish Conflict in Israel: White Jews, Black Jews (London: Routledge, 2010); Yehouda Shenhav, The Arab Jews: A Postcolonial Reading of Nationalism, Religion, and Ethnicity (Stanford: Stanford University Press, 2006).

45 Baruch Kimmerling, The Invention and Decline of Israeliness (Berkeley: University of California Press, 2001).

46 Baruch Kimmerling, Zionism and Territory: The Socioterritorial Dimension of Zionist Politics (Berkeley: Institute of International Studies, University of California, 1983).

٤٧ انظر:

Lev Grinberg, Politics and Violence in Israel/Palestine: Democracy vs. Military Rule (London: Routledge, 2010).

٤٨ باروخ كيمرلينغ، «الإسرائيليون الجدد: ثقافات متعددة دون تعددية ثقافية،» مجلة ألبايم (١٩٩٨): ٢٦٤-٣٠٨(بالعبرية).

٤٩ لإلقاء نظرة تاريخية عامة على الأحداث التي شكّلت المجتمع ونظام الحكم في إسرائيل بحكم علاقات القوة القائمة بين النخب السياسية والمقاومة التي خاضتها مختلف الفئات الطبقية والإثنية والقومية المغلوبة على أمرها، انظر:
Grinberg, Mo(ve)ments of Resistance.

٥٠ انظر:
Chetrit, Intra-Jewish Conflict in Israel (2010); Yoav Peled, ed., Shas: Challenging Israeliness (Tel Aviv: Yediot Haharonot, 2001).

٥١ انظر الدراسة النقدية التي تناولنا فيها هذا التفسير الذي رأى فيه مختلف علماء الاجتماع أن الصهيونية «تتوق» إلى الأيام الخوالي التي ساد فيها الحكم العلماني الاشكنازي.
Lev Grinberg, "Crumbling or Yearning Israeliness?" Theory and Criticism 25 (2004): 249–56.

٥٢ بلغ الحزبان أوج قوتهما عندما حصدا ٩٥ مقعدًا (من أصل ١٢٠ مقعدًا) في العام ١٩٨١ (٤٨ مقعدًا لحزب الليكود و٤٧ مقعدًا لحزب العمل). وتراجع عدد المقاعد التي فاز الحزبان بها إلى ٧٦ مقعدًا (٤٤ مقابل ٣٢) في العام ١٩٩٢، ثم حصلا معًا على ٤٥ مقعدًا (١٦ مقابل ٢٥) في العام ١٩٩٩. وكانت جميع الأحزاب الأخرى تمثل طوائف لها ثقافاتها الفرعية، وكانت تحمل اسم «القطاعات في العادة». وللاطّلاع على نقاش يتناول هذا التراجع، انظر:
Grinberg, Politics and Violence in Israel/Palestine (2010), Chapter 7.

53 Gershom Gorenberg, The Accidental Empire: Israel and the Birth of the Settlements, 1967–1977 (New York: Times Books, 2006).

٥٤ وزارة الخارجية الإسرائيلية، معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، على الموقع الإلكتروني:
https://mfa.gov.il/MFAAR/IsraelAndTheMiddleEast/Egypt/Pages/israel%20egypt%20peace%20treaty.aspx

٥٥ «اتفاق كامب ديفيد ١٩٧٨: إطار للسلام في الشرق الأوسط اتفق عليه في كامب ديفيد»، رحلات فلسطينية، على الموقع الإلكتروني:
https://bit.ly/2IT2Kfl.

56 Yaacov Bar-Siman-Tov, Israel and the Peace Process, 1977–1982: In Search of Legitimacy for Peace (Albany, NY: SUNY Press, 1994).

٥٧ انظر:
Grinberg, Politics and Violence (2010).

٥٨ للاطلاع على بيان مفصل يتناول إدارة باراك، انظر:
Raviv Drucker, Harakiri: Ehud Barak and The Failure (Tel Aviv: Yediot Aharonot, 2002).

59 Grinberg, Mo(ve)ments of Resistance, 312.

٦٠ أعلن بيريتس، في الخطاب الذي ألقاه بعد إعلان نتائج الانتخابات على الفور: «أريد أن أرفع صوتي عاليًا وأكون واضحًا: ينبغي ألا نقاطع القائمة المشتركة ... فالمجتمع الإسرائيلي يجب أن يتعافى من عشرة أعوام من حكم نتنياهو. وليس ثمة شفاء دون حب، وليس ثمة شفاء مع المقاطعة والاستقطاب ... وعلينا ألا نقاطع المتدينين المتزمتين كذلك،» (ترجمة المؤلف عن العبرية)، انظر الموقع الإلكتروني:
https://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-5591813,00.html?fbclid=IwAR0U65CK--b2V4mRGalUGDuez7c-QVqnUqV5RHzMeXXueDj9vwPTifLdgsqo.

٦١ ثمة سوابق عدة شهدت مساعٍ لبناء تشكيلات مشابهة وتمحوُرها حول جنرالات من «يسار الوسط». ففي العام ١٩٧٧، فاز حزب داش بخمسة عشر مقعدًا. ونال هذا الحزب من تيار «الوسط» ستة مقاعد في العام ١٩٩٩. وفي العام ٢٠٠٦، شكّل شارون وبيريس حزب كاديما، وفازا بتسعة وعشرين مقعدًا، على الرغم من أنهما كانا زعيمين سياسيين معروفين، وتبع أثرهما عدد لا يستعان به من أعضاء حزبي الليكود والعمل.

٦٢ في العام ١٩٩٢، لم يشكّل الروس حزبًا خاصًا بهم. فقد كانت هجرتهم قد استُهلت في العام ١٩٨٩. وظهر تأثيرهم في العام ١٩٩٢ مع تصويتهم لرابين. وبحلول العام ١٩٩٦، كان هؤلاء الروس قد أنشأوا حزبًا تزعمه ناشان شيرانسكي، حيث فاز بستة مقاعد وانضم إلى الائتلاف الذي شكّله نتنياهو. وانضوى الروس ضمن ائتلاف بارك في العام ١٩٩٩.

٦٣ وقد حذا يائير لبيد، الزعيم الكاريزمي لهذا الحزب، حذو والده، تومي لبيد. فقد شكّل لبيد الأب حزب شينوي الذي تزعمه قبل انعقاد الانتخابات في العام ١٩٩٦، وفاز بستة مقاعد. وفي انتخابات العام ٢٠٠٣، حصل حزب شينوي على خمسة عشر مقعدًا وانضم إلى حكومة شارون، التي أقصت الأحزاب الدينية المتزمتة. وغاب حزب شينوي عن الساحة في انتخابات العام ٢٠٠٦ مع ظهور حزب كاديما، الذي أنشأه شارون. وتراجعت قوة حزب كاديما في العام ٢٠١٣ إلى ستة مقاعد، وانضم إلى صفوف حزب العمل في انتخابات العام ٢٠١٥. وقد صوّت معظم الناخبين الذين أدلوا بأصواتهم لقائمة حزبيْ كاديما والعمل في العام ٢٠١٥ (أربعة وعشرون مقعدًا) لصالح حزب كاحول لافان في العام ٢٠١٩.

٦٤ للاطلاع على تفسير وافٍ لهذه الفرضية، انظر:
Grinberg, Mo(ve)ments of Resistance, 45–50.